4

دور الصراع العربي الإسرائيلي

وأمّا أميركا فأقول لها ولشعبها: أقسم بالله العظيم الذي رفع السماء بلا عمد، لن تحلم أميركا، ولا من يعيش في أميركا بالأمن قبل أن نعيشه واقعاً في فلسطين، وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد صلى الله عليه وسلم.

أسامة بن لادن، 7 تشرين الأول 2001

مع بداية الهجمات الأميركية على القاعدة ومضيفيها، نظام طالبان في أفغانستان، ختم أسامة بن لادن خطاباً رمى من ورائه إلى حشد الدعم العربي والإسلامي من خلال الإيحاء بأنّ الباعث على إرهابه هو الألم في فلسطين. غير أنَّ ما دافعت عنه القاعدة تاريخياً، فضلاً عن سجِّل بن لادن نفسه، يوضحان أنَّ فلسطين لم تكن أولوية من أولويات منظمته. بل إنّ نظرة القاعدة وكثير من الإسلاميين في أرجاء العالم إلى منظمة التحرير الوطنية الفلسطينية،

وإلى الحركة الوطنية الفلسطينية، هي نظرة ازدراء واحتقار، ذلك أنّهم يسعون إلى عالم إسلامي لا تحدّه الحدود، وليس إلى عالم علماني منقسم. وتبعاً لبعض من اطّلعوا على آليات عمل القاعدة الداخلية وتعاونوا مع المحققين الأميركيين منذ خريف العام 2001، فإنّ القاعدة تنظر حتى إلى حركة حماس الإسلامية الفلسطينية نظرة شكّ وارتياب بوصفها جماعة وطنية لا تركّز إلا على فلسطين، ولم يسبق لها أن أرسلت مقاتلين دفاعاً عن القضايا الإسلامية الأخرى في أماكن مثل الشيشان، أو البوسنة، أو أفغانستان. والسؤال المطروح: لماذا أثار بن لادن القضية الفلسطينية في ساعة حاجته اليائسة إلى الدعم؟ والجواب بسيط: ما من قضية أخرى تلقى تجاوباً لدى الجمهور في العالم العربي، وفي كثير من بقاع العالم الإسلامي، بالقدر الذي تلقاه فلسطين. وما من قضية أخرى تسهم في تشكيل تصوّرات المنطقة عن أميركا بالعمق الذي تسهم فيه قضية فلسطين.

ومنذ إقامة دولة إسرائيل، غالباً ما لجأت الحكومات العربية إلى استخدام القضية الفلسطينية لغاياتها السياسية الخاصة، ومنها إلقاء قناع على المشاكل الداخلية في بعض الأحيان. وحين غزا العراق الكويت لأسباب كان من الواضح أن لا علاقة لها بفلسطين أو إسرائيل، ركّز قادته بلاغتهم على هاتين القضيتين بالدرجة الأولى، وصوّروا أنفسهم على أنّهم حُماة القضية الفلسطينية الذائدون عنها. وحين بدأت حرب الخليج في العام

1991، سارع العراق إلى إطلاق الصواريخ على إسرائيل في محاولة لتحويل الحرب إلى صراع عربي إسرائيلي. وحين تزايد قلق صدام حسين حيال الخطط الحربية الأميركية الجديدة للإطاحة بحكومته في آب 2002، ألقى خطاباً لتهيئة الشعب العراقي وسواه في العالم العربي حيّا فيه "العرب، وفي مقدمتهم شعب فلسطين البطل، و... كلّ مؤمن غيور مجاهد لاقى ربّه بقلب سليم[23]". والسؤال الذي ينبغي طرحه هو ما دامت العلاقة واهيةً في أغلب الأحيان بين بواعث كثير من الأنظمة العربية وفلسطين، فلماذا يلهجون باسمها إلى هذا الحدّ؟

حين جاءت إدارة بوش في أوائل العام 2001، كانت آمال السلام الفلسطيني الإسرائيلي باهتةً، وكان ذلك واحداً من الأسباب التي دفعت هذه الإدارة إلى الإحجام عن وضع هذه القضية في أولويات جدول أعمالها. كما افترض المسؤولون الأميركيون أنّ العنف المتواصل، على الرغم من المأساة التي ينطوي عليها، من غير المحتمل أن يؤثّر جدّياً على المصالح الأميركية الحيوية، خاصةً في منطقة الخليج. ورأوا أنّ أنظمةً عربيةً مثل العربية السعودية تبيع القضية الفلسطينية كلاماً لا يتبعه الفعل، وأنّ هذه الأنظمة لا

---

[23] - صدّام حسين، خطاب في 2002/8/8 بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة للحرب العراقية الإيرانية 1980 - 1988. يمكن العودة إلى نصّ هذا الخطاب باللغة الإنكليزية على موقع BBC Radio4:
http://www.bbc.co.uk/radio4/today/reports/international/saddam_speech.shtml

يمكن أن تترك لهذه المسألة أن تؤثّر على سياساتها أو تقوّض علاقاتها مع الولايات المتحدة.

غير أنّ الإدارة الأميركية واجهت تحدّياً مباغتاً لهذه النظرة في ربيع العام 2001، قبل أشهر من رعب 9/11. فقد رفض وليّ العهد السعودي الأمير عبد الله، الذي يدير البلاد عمليّاً، دعوة بوش إلى زيارة البيت الأبيض لامتعاضه من السياسة الخارجية الأميركية تجاه فلسطين. وتبعاً لكثيرٍ من الروايات، فإنّ هذا التصرف حيَّر الرئيس بوش ودفعه إلى إعادة تقويم سياسة إدارته كما لم يفعل أيّ حدث آخر في الشرق الأوسط.

وبصرف النظر عن الدوافع الحقيقية لدى أنظمة المنطقة، التي تدفعها حسابات البقاء في المقام الأول، شأن الأنظمة في أيّ مكان آخر، تبقى الحقيقة الأكيدة أنَّ معظم اللجوء إلى مسألة فلسطين ناجمٌ عن إدراك هذه الأنظمة أنها القضية التي تترك أعمق الأثر لدى شعوبها، خاصّة في حالات الأزمة، حيث يهرع الزعماء العرب في كثير من البلدان إلى التلفّع بالأعلام الفلسطينية.

الأدلّة

لقد أدركت الحكومة السعودية وسواها من الحكومات العربية على نحوٍ مطّردٍ عمقَ الغضب الشعبي في بلدانهم حيال القضية الفلسطينية. وفي استطلاعات للرأي قُمت بها في آذار من

العام 2001 في خمس دول عربية - هي العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، والكويت، ولبنان، ومصر - كانت المواقف الشعبية من هذه المسألة واضحة أشدّ الوضوح. ففي البلدان الأربعة الأولى، أشار 60٪ من المُسْتَجْوَبين إلى الصراع الفلسطيني على أنّه "القضية الواحدة الأشدّ أهمية" بالنسبة لهم شخصياً، في حين أشارت نسبة إضافية بلغت 20٪ إلى أنّ هذه القضية هي بين القضايا الثلاث الأشدّ أهمية. وفي مصر، أشار 79٪ إلى أنّها "القضية الواحدة الأشدّ أهمية" وكانت النتائج مماثلة في استطلاع أجرته مؤسسة زغبي إنترناشيونال[24] في ربيع العام 2002 وطاول عشرة بلدان، من بينها خمسة بلدان عربية وثلاثة بلدان إسلامية وفنزويلا وفرنسا. ففي كلّ البلدان العربية المُسْتَطْلَعَة، قال ما يُقارب ثلثي المستجوبين إنّ القضية الفلسطينية هي القضية "الأشدّ أهمية" أو "المهمّة جداً" التي تواجه العالم العربي اليوم. ووافقت النسبة نفسها تقريباً في دولتين مسلمتين غير عربيتين، هما الباكستان وأندونيسيا، على القول ذاته. ومع أنّ هذه الاستطلاعات لا تعني أنّ فلسطين أهمّ من العمل والطعام، إلاّ أنّها تشير بوضوح إلى عمق الشعور تجاه هذه المسألة في هذه البلدان.

---

24 - زغبي إنترناشيونال، استطلاع بعنوان "انطباعات عشرة بلدان عن أميركا"، لقاءات شخصية في مصر وفرنسا وأندونيسيا وإيران والكويت ولبنان والباكستان والعربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وفنزويلا بين 4 آذار و3 نيسان 2003، وصدر في 11 نيسان 2003.

وبخلاف التصوّر الذي يرى أنّ مثل هذه المواقف مدفوعة بظاهرة الجزيرة وسواها من الوسائل الإعلامية الجديدة، لم يكشف الاستطلاع عن أيّة أدلّة تدعم مثل هذه النظرية. وحقيقة الأمر، أنّه لم يكن هنالك أيّ فارق واضح في عمق المشاعر تجاه فلسطين بين أولئك الذين يشاهدون الجزيرة وأولئك الذي لا يشاهدونها في ثلاثة من البلدان المدروسة، كما جاءت النتائج في مصر والعربية السعودية معاكسةً للرأي الشائع: ففي هذين البلدين، كان الذين يشاهدون الجزيرة أقلّ حماساً بعض الشيء تجاه فلسطين قياساً بمن لا يشاهدونها.

ولا يقتصر الأمر على أنّ الجمهور العربي يضع قضية فلسطين في أعلى سلّم أولوياته، بل يتعدّاه إلى أنّ هذه القضية هي التي تشكّل على نحوٍ واضحٍ مواقفه من الولايات المتحدة. ففي استطلاع أجريته في شباط من العام 2002 بين النخب السعودية ـ التي تحدّدت بمن يعملون في وسائل الإعلام، والأكاديميين، وأعضاء غرفة التجارة ـ قال 43٪ إنّ الإحباط الذي يشعرون به تجاه الولايات المتحدة سوف يزول كليّاً، وقال 23٪ إنه سيقلّ كثيراً، إذا ما توسّطت أميركا سلاماً عادلاً ودائماً في الصراع العربي الإسرائيلي. ومما دَعَّم هذه النتائج ما أسفر عنه الاستطلاع الذي أجرته زغبي إنترناشيونال في نيسان عام 2002، وقالت فيه الأكثرية الساحقة في جميع الدول العربية و الإسلامية، ما عدا إيران، إنّ نظرتها إلى الولايات المتحدة ستكون أكثر رضاً إذا ما "مارست ضغطاً يضمن قيام دولة فلسطينية".

وتبيّن عمليات استطلاع أخرى، من بينها استطلاعات أجرتها الغالوب، تلك الأهمية التي تحوزها هذه القضية بين شعوب المنطقة، ما يثبت الرأي الذي توصّل إليه كثير من المحللين والباحثين والصحفيين منذ وقت طويل على أساس لقاءات وأحاديث مع شعوب المنطقة، إلا أنّ ذلك كلّه لا يوضح ما الذي يجعل لقضية فلسطين مثل هذه الأهمية بالنسبة للعرب والمسلمين، الأمر الذي يبقى بحاجةٍ إلى تفسير.

من أين تأتي أهمية القضية الفلسطينية؟

ثمة أسباب تدعو إلى الشكّ في حجم العناية الفعلية التي يوليها العرب للقضية الفلسطينية، وذلك نظراً لسلوك كثير من الأنظمة العربية في الماضي والمواقف السلبية الواضحة التي أبدتها تجاه الفلسطينيين أقسام من الجمهور العربي في بلدان مثل لبنان والكويت والأردن. فلقد عانى اللاجئون الفلسطينيون في معظم البلدان التي لجؤوا إليها، وخاصةً لبنان، ولم يُمْنَحوا المواطنة إلاّ في الأردن. وبعد تحرير الكويت في العام 1991، طردت حكومة هذا البلد معظم الفلسطينيين المتواجدين على أراضيها لأنّ القيادة الفلسطينية كانت قد تعاطفت مع العراق. كما أدّت النتيجة التي أسفرت عنها حرب الخليج عام 1991 إلى تدهور العلاقات بين معظم البلدان العربية الخليجية ومنظمة التحرير الفلسطينية. وحقيقة الأمر، أنّ حرب الخليج بدت للكثيرين على أنّها قد قلّلت

إلى حدٍّ بعيد، وبصورةٍ قد تكون مُبْرَمَةً، من أهمية القضية الفلسطينية في السياسة العربية.

بيد أنّ هذا الاستنتاج ينطوي على نوع من إساءة قراءة التاريخ. فالقضية الفلسطينية لا تدور حول حبّ عرفات أو كرهه، ولا حول الإيمان بالحركة الوطنية الفلسطينية بحدّ ذاتها، أو التعلّق الشديد بفلسطينيين أفراد. إنّها قضية هوية. ودورها في الوعي العربي الجمعيّ خلال الخمسين سنة الماضية كان شبيهاً بالدور الذي لعبته دولة إسرائيل في الهوية اليهودية المعاصرة وإن لم يكن مطابقاً له: حيث يمكن لليهودي أن يكره قادة إسرائيل و يلقي عليهم بلائمة بعض المشاكل التي وقعت فيها إسرائيل، بل يمكنه أن يكره الثقافة الإسرائيلية ذاتها، أمّا حين تُهدّد إسرائيل ويكون بقاؤها موضع رهان، فلا يستطيع معظم اليهود أن يتمالكوا أنفسهم عن إبداء التعاطف.

ولقد ساهمت إسرائيل وفلسطين تلك المساهمة الواسعة في تحديد الوعي السياسي المعاصر في المنطقة. فقيام إسرائيل في العام 1948 جاء بعكس تطلعات المنطقة التي كانت تبلّ من الحقبة الاستعمارية. والندبة التي خلّفتها حرب العام 1948 في النفس الجمعيّة تفاقمت بمأساة الفلسطينيين الإنسانية، حيث غدا معظمهم لاجئين بلا وطن. هكذا بات الفلسطينيون جرحاً فاغراً، وتَذْكِرَةً بحجمِ ما تكشّفَ للعيان: دولة صغيرة اعتقد معظم الناس أنها زائلة وعابرة هزمت الجيوش العربية التي رفضتها مجتمعةً. ولم

يمضِ عقد، حتى انضمّت إسرائيل إلى خصميّ العرب الاستعماريين، بريطانيا وفرنسا، في هجوم على مصر يرمي إلى إسقاط زعيمها القومي العربي الشعبي، جمال عبد الناصر. وبعد عقد آخر، مع تجديد عبد الناصر للأمل ووعده باستعادة المجد والكرامة العربيين وتبنّيه قضية فلسطين بوصفها القضية المركزية لحركته، تحطّم الحلم مع الهزيمة المنكرة التي ألحقتها إسرائيل بالعرب في حرب العام 1967. تلك الحرب التي تركت عواقبها النفسية لدى أجيال من العرب كما كانت مأساةً فعليةً بالنسبة للكثيرين، خاصةً الفلسطينيين، الذين غدا المزيد منهم لاجئين مرّة أخرى. فعلاوة على آلاف الإصابات التي تكبّدتها مصر وسوريا والأردن، وما لحق بها من إنهاك اقتصاداتها، احتلّت إسرائيل قطعة كبيرة من أرض كلٍّ من هذه الدول، ووقع مئات آلاف الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزّة تحت الاحتلال. وبعد خمسة وثلاثين عاماً، لا يزال هؤلاء بعيدين عن الاستقلال، ندبة مفتوحة تذكّر بفترةٍ مؤلمةٍ من فترات التاريخ العربي.

ومع أنّ أداء مصر وسوريا كان أفضل في الحرب التي شنّتاها على إسرائيل في العام 1973، إلاّ أنّ نتيجة تلك الحرب جاءت في معظمها لصالح مصر، وإسرائيل، وسوريا إلى حدٍّ أقلّ، ولم تأتِ لصالح الفلسطينيين. فبالنسبة لهم، تمثّل الإنجاز الأساسي لما بعد حرب 1973 باعتراف الدول العربية بأنّ للفلسطينيين الحقّ في تمثيل أنفسهم. فقد اعترف مؤتمر القمة الذي عُقِد في الرباط

المغربية عام 1974 و لأول مرّة بأنّ منظمة التحرير الفلسطينية هي "الممثّل الشرعي الوحيد" للشعب الفلسطيني. أمّا قبل ذلك، فكان عبد الناصر قد اختار على مدى سنوات أن يتكلّم باسم الفلسطينيين، ناظراً إليهم على أنّهم جزء من الأمة العربية التي كان يرى نفسه قائدها، كما ادّعى الملك حسين، ملك الأردن، التي يسكنها كثير من الفلسطينيين، أنّ له حقّ الكلام باسمهم. أمّا هذه النقلة في قمّة العام 1974 فكانت اعترافاً جوهرياً بحركةٍ وطنيةٍ فلسطينيةٍ مستقلة في منطقةٍ عربيةٍ مكوّنةٍ من دول مختلفة تعمل كلٌّ منها لخدمة ذاتها ومصالحها.

ولقد تمثّل الأثر الأهمّ لحرب العام 1973 بتمكينها مصر من إقامة سلامها مع إسرائيل في العام 1978 دون أن يكون هذا السلام مشروطاً بصورةٍ مسبقة ومباشرة باستقرارٍ شاملٍ في المنطقة أو بانسحاب إسرائيلي من الأراضي العربية الأخرى التي احتُلّت في العام 1967. وبصرف النظر عن غايات مصر، وعن القرارات الخاطئة التي ارتُكِبَتْ في أرجاء المنطقة، فقد كانت النتيجة أنّ كفّةَ الشعوب العربية الأخرى، خاصة السوريين و الفلسطينيين، قد خَلَتْ من ثقل مصر النوعي في المواجهة مع إسرائيل. ومن غير قوة مصر العسكرية، لم يعد لدى أيّة مجموعة من جيران إسرائيل أيّة قدرة بارزة على ردع إسرائيل أو الضغط عليها. بل إنّ الاتفاقية المصرية الإسرائيلية لم تكن قد طُبِّقَت حين غزت إسرائيل لبنان لطرد منظمة التحرير الفلسطينية والمساعدة على قيام حكومة

صديقة في جوارها القريب. وحين حاصرت إسرائيل بيروت، كان عجز الدول العربية عن الردّ دليلاً مباشراً على تدهور قوة العرب في ظلّ السلام المصري الإسرائيلي.

ومع إجبار منظمة التحرير الفلسطينية على نقل مراكز قيادتها بعيداً عن حدود إسرائيل إلى تونس في شمال أفريقيا، تميّزت أواسط ثمانينيات القرن العشرين بتهديد ملحٍّ جديد للدول العربية، خاصةً دول الخليج المنتجة للنفط. فالحرب العراقية الإيرانية، التي اندلعت في العام 1980، بدأت تميل لمصلحة إيران، ما أثار خشية كثير من الدول العربية الصغيرة، بما فيها الكويت. كما أنّ لبعض الدول، مثل الإمارات العربية المتحدة، نزاعات على أراضٍ مع إيران، وخشي الجميع من أن تتدخّل حكومة إيران الثورية في شؤونها الداخلية. أمّا القضية الفلسطينية، والصراع العربي الإسرائيلي عموماً، فلم يعودا في مقدمة أولويات العرب. وفي هذه البيئة، كان أن أمسك الفلسطينيون زمام أمورهم بأيديهم، بعد أن أحبطهم عجز الدول العربية عن مساعدتهم في إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، فأطلقوا انتفاضتهم الكبرى الأولى في العام 1987.

وما إن انتهت الحرب العراقية الإيرانية في العام 1988، حتى عاد التركيز على فلسطين، تغذّيه أخبار الانتفاضة. فالتقارير عن إصابات المدنيين الفلسطينيين؛ والمواجهات حول قضية القدس بما لها من أهمية؛ وصعود حكومة شامير في إسرائيل، بتصميمها على

الاحتفاظ بالضفة الغربية كجزء من إسرائيل؛ والخوف من أن تعمل الهجرة اليهودية الكثيفة إلى إسرائيل على مساعدة شامير في تنفيذ استراتيجيته، كلّ ذلك أدّى إلى زيادة الاهتمام في العالم العربي. ولقد سعى الرئيس العراقي إلى استغلال المشاعر العامة لمصلحته بعقدِ مؤتمرٍ للقمة العربية في بغداد في نهاية أيار من العام 1990، قبل شهرين تماماً من غزو الكويت.

ومع أنَّ الولايات المتحدة والحكومات العربية كانت قادرة على فصل مصالحها المباشرة في الخليج عن المسألة العربية الإسرائيلية والحدّ من تأثير هذه القضية على الحملة الرامية إلى إخراج العراق من الكويت، إلاّ أنَّ هذه القضية كانت عاملاً له أثره السياسي، سواء قبل الحرب أم خلالها أم بعدها، فقبل الحرب، حدّت هذه القضية من قدرة الحكومات العربية على الوقوف في وجه صدام حسين. وخلال الأزمة، جرى الإسراع جزئياً في توقيت الحرب لأنَّ مجزرة القدس في خريف العام 1990 كادت أن تقوض التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. أمّا بعد الحرب، فقد سارعت الولايات المتحدة إلى تنفيذ الالتزامات التي أخذتها على عاتقها أثناء الحملة بأن تواصل العمل بقوة على حلّ الصراع العربي الإسرائيلي بعد انتهاء الحرب. وهكذا أطلقت إدارة بوش الأب عملية مدريد للسلام والتي وعدت بحلّ الصراع العربي الإسرائيلي بمعناه الواسع من خلال المفاوضات.

غير أنَّ اختراقاً سيكولوجياً حصل في العام 1993، حين توصلت إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى اتفاقية سرية في أوسلو. ودعا الرئيس الأميركي بل كلينتون القادة الفلسطينيين والإسرائيليين إلى مراسم التوقيع في البيت الأبيض في 13 أيلول من العام1993. وقد نصّت الاتفاقية على تحقيق استقلال الفلسطينيين التدريجي في الضفة الغربية وقطاع غزّة، وإقامة سلطة فلسطينية مُنتخَبة، والتفاوض لحلّ كلّ القضايا الصعبة المتبقية: قضية اللاجئين الفلسطينيين، والحاجات الأمنية الإسرائيلية؛ والمستوطنات اليهودية التي بُنيت في الأراضي المحتلة؛ وتقاسم الموارد المحدودة، خاصةً المياه. وقد أمل المفاوضون أن تساعد المقاربة التدرّجية في بناء الثقة وتمكين جميع الأطراف من السير قُدُماً، حتى الوصول إلى الحلّ النهائي في آخر المطاف بعد خمس سنوات من بداية العملية.

وعلى الرغم من إدراك المحللين أنَّ في الاتفاقيات كثيراً من نقاط الضعف التي يمكن أن تقوّض العملية، إلاّ أن معظمهم كانوا يرون أيضاً أنَّ هذه الاتفاقيات تمثّل اختراقاً كبيراً في تاريخ الصراع. فالقفزة إلى الأمام لم تكن في تفاصيل الاتفاق بقدر ما كانت فيما اشتملت عليه اللوحة الكبيرة: اعتراف الطرفين كلٌّ منهما بالآخر. وقد تجسّد هذا التقدم السيكولوجي رمزياً في المصافحة الدراماتيكية بين إسحق رابين وياسر عرفات في حديقة البيت الأبيض في 13 أيلول 1993. فقد اعترف الفلسطينيون بحقّ

إسرائيل في الوجود، أمّا إسرائيل، باعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للفلسطينيين، فكانت تقرّ رسمياً بأنَّ الفلسطينيين شعب له حقوقه الوطنية. فطوال عقود من الصراع، كان الإسرائيليون يرفضون فكرة أنَّ الفلسطينيين يشكلون شعباً مستقلاً له الحقّ في تقرير مصيره وكان الفلسطينيون يرفضون فكرة الوطن اليهودي، وينظرون إلى اليهودية على أنها مجرد هوية دينية وعرقية.

ولقد أتت أهمية هذا الاعتراف المتبادل من فتحهِ أمامَ التسويةِ المتعلّقةِ بالأرض إمكانيةَ استيعاب تحقيق الآمال الوطنية الدنيا لدى كلّ طرف بدولة خاصة به. أمّا في السنوات الأولى بعد 1948، حين لم تكن قضية الفلسطينيين الرئيسة إقامةَ وطنهم بل حقّهم في العودة إلى ديارهم داخل إسرائيل، فقد كان هذا الهدف متعارضاً مع فكرة إسرائيل بوصفها دولة يهودية، لأنّ عودة جميع اللاجئين سوف تفضي إلى وجود أكثرية عربية. كما أنّ المواقف الإسرائيلية السابقة التي كانت ترفض فكرة الوطن الفلسطيني وتلحّ على الاحتفاظ بمعظم الضفة الغربية، لم تكن تترك مجالاً لاستيعاب التطلّعات الفلسطينية الجوهرية. ولذلك فقد تمثّلت أهمية أوسلو في تعريفها الصراع بتلك الطريقة التي دفعته فيها لأن يعهد بنفسه إلى التسوية والحلّ.

ولقد شهد تنفيذ الاتفاقيات ضروباً من الصعود والهبوط، مع نيل الفلسطينيين استقلالهم في مدنهم بالدرجة الأولى ونيل

الإسرائيليين مزيداً من الأمن. غير أنَّ العيوب الكثيرة في الاتفاقية هي التي تحكّمت في النهاية بأمر تنفيذها. فالعملية التدريجية التي قُصِدَ منها بناء الثقة أتاحت للمناوئين في كلا الطرفين فرصاً للانحراف بالاتفاقيات عن سكّتها. كما قصّر كلّ طرف أشدّ التقصير، بسبب من وقوعه في شراك سياسته الداخلية، عن احترام واجباته، فضلاً عن إخفاق الولايات المتحدة، الوسيط الأساسي في المفاوضات، في دفع الطرفين إلى تحمّل مسؤولياتهم ومحاسبتهم على ذلك. وكانت هنالك مشكلتان حاسمتان: فقد توقّع الإسرائيليون أن يحصلوا على الأمن وما يولّده من حالةٍ نفسية، وتوقّع الفلسطينيون ضمانات بأنّ إسرائيل سوف تنسحب في النهاية وتتيح لهم إقامة دولتهم المستقلة. غير أنَّ العنف، الذي انخفض بالمقارنة مع الفترة السابقة على الاتفاقية، لم يواصل انخفاضه، وعملت العمليات الانتحارية داخل إسرائيل على خلق حالة عامة من انعدام الأمن. ومن بين كلّ الأعمال الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، كان العمل الذي أطاح بثقة الفلسطينيين أشدّ الإطاحة هو مواصلة بناء المستوطنات في الضفة الغربية على الرغم من افتراض أنَّ الطرفين كانا يتفاوضان على الانسحاب الإسرائيلي من تلك الأرض. وكان لهذه الأعمال المحبطة من كلا الطرفين أن تؤدّي إلى بروز الحجج الجاهزة لدى المتشددين على كلا الجانبين. ففي إسرائيل، رأى هؤلاء أنَّ الاتفاقيات أتاحت فرصةً أكبر أمام الإرهاب الفلسطيني. أما الفلسطينيين، فرأوا أنَّ الاتفاقيات مناورة إسرائيلية لاغتنام الوقت وتعزيز السيطرة عبر بناء المزيد من

المستوطنات. ولقد فاقم هاتين المشكلتين الحاسمتين في تنفيذ اتفاقيات أوسلو إخفاق كلا الحكومتين في تهيئة شعبيهما للتسوية الضرورية وبناء آلية المصالحة بين الشعبين، بالتحول من لغة العداء التي استخدمها كل طرف على مدى عقود الصراع إلى لغة السلام والمصالحة.

وعلى الرغم من ضروب الصعود والهبوط، فقد تغلّبت العملية على عقبات كبيرة، بما فيها اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين على يد يهودي معارض لتحركاته السلمية، وانتخاب رئيس وزراء إسرائيلي جديد في عام 1996، هو بنيامين نتنياهو، يعارض اتفاقيات أوسلو. وعلى الرغم من موقفه المتشدد، فقد دخل نتنياهو مكرهاً "اتفاقية واي ريفير"مع الفلسطينيين، لدفع بعض بنود اتفاقية أوسلو صوب مزيد من التنفيذ. إلا أنَّ غياب التقدّم المهم، واستمرار العنف، والتوتر بين حكومة نتنياهو وإدارة كلينتون أدّت إلى قِصَرِ فترة نتنياهو. وفي العام 1999، حلّ إيهود باراك محلّه في رئاسة الوزراء. وقد جدّد انتخاب باراك تطلّعات إسرائيل في التوصّل إلى حلّ نهائي مع الفلسطينيين، خاصةً أنَّ الرئيس الأميركي كلينتون كان مصمماً على جعل مثل هذا الاتفاق جوهرة التاج في رئاسته. وبعد محاولة فاشلة لحلّ القضايا المعلّقة بين إسرائيل وسوريا من خلال التفاوض، أُعِدَّ المسرح للمفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية في كامب ديفيد في حزيران من العام 2000.

وقبل أن نأتي إلى العواقب التي ترتّبت على انهيار هذه المفاوضات، من المهمّ أن نبقي في الأذهان كيف غيّرت عملية أوسلو سيكولوجيا المنطقة على الرغم من نقاط ضعفها. فلقد افترض معظم العرب، أولاً، أن اتفاقيات أوسلو سوف تفضي في النهاية إلى سلام عربي إسرائيلي، حتى ولو كانوا يتشكّكون في بنودها الفعلية. وقد مكّن هذا الافتراض الكثير من الحكومات العربية من أن تضع الأساس لتحسين علاقاتها مع إسرائيل والتهيئة لمثل هذا السلام. فقد تمكّن الأردن من عقد اتفاقية سلام خاصة مع إسرائيل. وبدأ المغرب وتونس وقطر وعُمَان ببناء علاقات مع إسرائيل. ومع أنَّ العنف لم يتوقف تماماً، إلاّ أنَّ تلك المرحلة شهدت انخفاضاً سنوياً مطرداً في الإرهاب في الشرق الأوسط، وصولاً إلى أخفض معدّلاته لحظة انعقاد مؤتمر كامب ديفيد. وهكذا، تمكّنت إسرائيل من التركيز على اقتصادها وبرزت في الاقتصاد العالمي بطريقة لافتة، مع بلوغ مستوى الدخل فيها مستوياته في أوروبا الغربية. كما تمكّنت الولايات المتحدة، بوصفها وسيط السلام، من استخدام دورها هذا في التوصل إلى تعاون إقليمي مع سياساتها في غير مكان من الشرق الأوسط، بما في ذلك العراق، على الرغم من استمرار انتقادها في العالم العربي على انحيازها لإسرائيل.

وفي النهاية، فإنَّ ما بدا من انخفاضٍ ظاهرٍ في اهتمام أجزاء من العالم العربي بالقضية الفلسطينية كان مرتبطاً بافتراض أن

هذه المشكلة في طريقها إلى الحلّ. وهو قريب من النقاش بين اليهود الأميركيين حول إمكانية خفض الاهتمام بإسرائيل بعد قيام السلام. فمثل هذه المواقف لم تكن تعكس غياب الاهتمام بل تحولاً في الأولويات قائماً على تقويم موضوعي لفرص السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. وهكذا، كان لانهيار عملية أوسلو في العام 2000 أن يعيد إلحاح القضية الفلسطينية الإسرائيلية لدى كلّ من العرب واليهود في العالم كلّه.

مفاوضات كامب ديفيد الثانية

ليست غايتي أن أقوّم ما جرى من خطأ في كامب ديفيد أو أن أحدّد سبب إخفاق المفاوضات بل أن أضع الإخفاق في سياقه وأقوّم عواقبه على الشرق الأوسط وعلى السياسة الخارجية الأميركية.

وثمّة نقاط عديدة يمكن أن تساعد في وضع النتيجة التي أسفرت عنها المفاوضات في موقعها الصحيح:

1. كان لدى كلّ طرف رؤيته المختلفة للمفاوضات. فبما أنَّ الإسرائيليين كانوا يسيطرون على الضفة الغربية وغزّة، فقد نظروا إلى كل قطعة أرض عرضوا الانسحاب منها على أنّها تنازل إسرائيلي، أو شيء "يهبونه" للفلسطينيين. وهكذا نظر الإسرائيليون إلى عرضهم "إعطاء" 90٪ من تلك الأراضي للفلسطينيين على أنه تنازل إسرائيلي كبير.

أمّا الفلسطينيين فكانوا يعتقدون أنهم باعترافهم بإسرائيل كدولة، قد تخلّوا أصلاً عن 78٪ من فلسطين التاريخية واقتصروا على المطالبة بالضفة الغربية وغزّة، اللتين احتلتهما إسرائيل في العام 1967 ويشعر الفلسطينيون أنهما من حقهم تماماً. وهكذا، كانوا ينظرون إلى أيّة أجزاء من هذه الأراضي تحتفظ بها إسرائيل، مهما تكن صغيرة، على أنها تنازل فلسطيني. وهذه النظرات المختلفة أثّرت بوضوح على رؤية كل طرف لحجم التسوية التي يمكن أن يُقدم عليها.

2. لم يكن هنالك تحضير كافٍ للقاء كامب ديفيد لأنَّ الطرفين لم يناقشا تقريباً تلك القضايا المهمة مثل القدس وعودة اللاجئين الفلسطينيين.

3. في حين ذهب باراك وكلينتون وهما يعتقدان حقّاً بإمكانية التوصّل إلى اتفاق كامل، لم يشعر عرفات أنَّ الطرفين جاهزين. وقد ذهب إلى اللقاء لكي يرى إذا ما كان بالإمكان إحراز تقدّم لكنه لم يكن يتوقّع اتفاقاً نهائياً. ولهذا السبب، فقد رفض أولاً فكرة عقد المفاوضات لكنه قَبِلَ بعد أن طمأنه الرئيس كلينتون بأنّه مهما حدث، فإنّه لن يلوم الفلسطينيين على الفشل.

4. لقد جرى معظم التفاوض بين عرفات وباراك عبر كلينتون، فهما لم يطورا قطّ علاقة جيدة بما فيه الكفاية.

5. لم تكن هنالك مقترحات رسمية مكتوبة تُقَدَّم خلال المفاوضات، ولم تقدِّم إسرائيل للفلسطينيين مقترحات مباشرة. أمّا الولايات المتحدة فنقلت إلى الفلسطينيين إيحاءات تصبّ في مصلحة إسرائيل.

6. قدّم كل طرف أفكاراً جديدة مهمّة خرقت المحرمّات القديمة. فقد بدأت إسرائيل بأخذ تسوية قضية القدس على محمل الجدّ وتهيأت للموافقة على الانسحاب من حوالي 90٪ من الأراضي المحتلة. ووافق الفلسطينيون على الترتيبات الأمنية الإسرائيلية؛ وعلى مبدأ أن توضع بعض المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية تحت السيادة الإسرائيلية؛ وعلى سيطرة إسرائيل على أجزاء من القدس الشرقية، بما في ذلك الجدار الغربي، والحي اليهودي، والأحياء اليهودية التي بنيت في المناطق المحتلة عام 1967.

7. أراد باراك استبعاد الدول العربية الأخرى عن المفاوضات، معتقداً أن فرصة الاتفاق ستكون أكبر من دونهم، وأقنع إدارة كلينتون بالمضيّ في هذا السبيل.

8. أثار كلٌّ من باراك وعرفات تهديدات شخصية يواجهانها بوصفهما الرافعتين في المفاوضات، حيث ذكّر باراك كلينتون بمصير رابين المأساوي وأوضح عرفات أنه لا ينوي أن يموت كما مات أنور السادات.

كانت قضية القدس موضع الخلاف الأكبر، وهي تفسّر جزئياً فشل المحادثات وانهيارها. وبسبب شعوري البالغ بأنَّ التركيز على القدس يمكن أن يخرج المفاوضات عن سكّتها، فقد كتبت التحليل التالي في "اللوس أنجلوس تايمز" في 14 تموز 2000، مع بداية المفاوضات:

بضغطٍ للتوصّل إلى اتفاق شامل ينهي الصراع الإسرائيلي الفلسطيني مرّةً وإلى الأبد، يُلحُّ كلٌّ من الإسرائيليين والفلسطينيين في كامب ديفيد الثانية على حلّ قضية السيادة على القدس الآن. وهذه فكرة سيئة.

تعتقد إسرائيل أنَّ استعدادها لتقديم تنازلات تتعلّق بالأرض من الأفضل أن يُسْتَخْدَم الآن لانتزاع تنازلات فلسطينية قصوى تتعلّق بالقدس. ويعتقد الفلسطينيون أنَّ استعدادهم لإنهاء الصراع مع إسرائيل في كامب ديفيد هو وسيلتهم الأخيرة لاستعادة السيطرة على القدس الشرقية. غير أنَّ قراراً حول السيادة على القدس يصدر الآن لابدّ أن يثير معارضة محمومة لدى هذا الطرف أو ذاك، ولعلّها تكون أكبر مما يمكن لإيهود باراك أو ياسر عرفات أن يسيطرا عليه.

وما يقصده كلٌّ من الإسرائيليين والفلسطينيين بـ"القدس" هو عموماً المدينة القديمة ضمن الأسوار العتيقة التي تضمّ معظم الأماكن المقدسة لدى اليهود، والمسلمين، والمسيحيين. والرمزية

التي تثيرها هذه الأماكن يصعب التغلّب عليها بواسطة الأفكار الخلاّقة المتعلّقة بتوسيع حدود المدينة.

فهذه الرمزية هي، من بعض النواحي، أكبر من الصراع الفلسطيني الإسرائيلي لأنّها تثير في النهاية جماعات يهودية ومسلمة من خارج النطاق الذي يسيطر عليه عرفات وباراك.

فالمشاعر تحتدم وتعرم لدى كلا الجانبين عندما تطرح قضية السيادة على القدس. وحين سأل مستطلعو الرأي فلسطينيين ما إذا كانوا يوافقون على سيادة إسرائيل على القدس الشرقية مقابل دولة فلسطينية في بقية الضفة الغربية وغزّة، رفضت الأغلبية الساحقة الدولة الفلسطينية إنْ لم تشتمل على القدس. وفي إسرائيل، لطالما رفضت أغلبية كبيرة فكرة سيادة دولة فلسطينية على المدينة القديمة، كما أعن باراك أنَّ هذه القضية هي واحد من خطوطه الحمر. فموافقته على سيادة فلسطينية على المدينة القديمة إجراء لابد أن يُحْبَط تماماً في إسرائيل.

وفي العالمين العربي والإسلامي، ما من قضية أخرى تتعلّق بإسرائيل يمكن أن تثير ذلك القدر من الناس الذي تثيره قضية القدس. فالقدس يُحْتَفَى بها وتثار في الاجتماعات السياسية والدينية والاجتماعية. ولقد اشتدت البلاغة المتعلّقة بهذه القضية في العالم العربي منذ نجاح عمليات حزب الله الإسلامي التي أجبرت الإسرائيليين على الانسحاب من لبنان. حيث أُبرزت رسالة القتال والدين المزدوجة بوصفها بديلاً للمفاوضات.وسيادة إسرائيل على

المدينة المسوّرة كفيلة بحشد جماعات في أرجاء المنطقة ضدّ الاتفاقية. وبخلاف مصر القوية، التي تمكّنت من احتمال عَقْدٍ من العزلة في العالم العربي بسبب اتفاقية كامب ديفيد في العام 1978 مع إسرائيل، فإنَّ عرفات أضعف بكثير من أن تكون له الغلبة دون دعم كبير من الأمة العربية[25].

وفي النهاية أخفقت المفاوضات. والأهمّ من ذلك، أنَّ انهيارها راح يفكّك النموذج الذي سيطر في تسعينيات القرن العشرين: السلام العربي الإسرائيلي الذي ترعاه أميركا ويشكّل حجر الزاوية لنظام إقليمي جديد، مستقر، ومزدهر. ومع أنّ أسباب هذا الفشل سوف تكون محلّ جدال طويل، إلا أنَّ روايتين اثنتين على الأقل مختلفتين تماماً، إحداهما فلسطينية والأخرى إسرائيلية، هما اللتان ستسيطران، حتى إنَّ أعضاء الفريق الأميركي المفاوض لم يكن لهم رأي واحد بشأن أسباب الإخفاق.

ومن المهمّ أن نبقي في الذهن أيضاً أنَّ السياسيين من كلِّ طرف وجدوا مصلحةً في استمرار التأويلات المغالية التي تنحو باللائمة كلِّها على الطرف الآخر. فنظراً لعواقب هذا الانهيار الخطيرة، ما من سياسي يريد أن يتحمّل مسؤولية أخطائه. وبعد انهيار المفاوضات مباشرةً، كنتُ قد عبّرت عن مخاوفي في "البالتيمور صن" يوم 27 تموز 2000، فقلت:" نظراً لحاجتهما إلى

---

25 ـ شبلي تلحمي، "إنْ لم تَفُزْ منذ البداية فأجّلْ"، *لوس انجلوس تايمز*، 14 تموز 2000، ص 9.

استغلال الترحاب الذي تلقاه عودة الأبطال إلى الوطن بعد أن تمسّكوا بالثوابت، فإنَّ رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات لا بدّ أن يركّز كلّ منهما على عيوب الطرف الآخر. وفي مثل هذه اللعبة، لن يكون هنالك أيّ فريق رابح"، وأضفتُ أنَّ السياسيين الأميركيين " ينبغي أن يقاوموا إغراء إلقاء اللوم على هذا الطرف أو ذاك...فسوف يكون في الخطاب العام، سواء هنا أم في الشرق الأوسط، قَدْرٌ من لعبة اللوم يكفي لأن يعرّض للخطر احتمالات اتفاقية مقبلة[26]". وفي سياق التركيز على لوم الطرف الآخر، لا تقتصر المأساة على أنَّ كلّ طرف يقدّم تأويلاً للأحداث مختلفاً ومغالياً بل تتعدّاه، بمرور الوقت، إلى أنهما يصدّقان ما يطلقانه من غلوّ ومبالغة.

ولقد استفحل إخفاق المفاوضات باندلاع العنف الشديد في خريف العام 2000. وكان من المتوقّع للأماكن المقدّسة الإسلامية واليهودية في القدس أن تكون القضية التي تقدح زناد الأهواء والحماس. فقد وافقت حكومة باراك على السماح لأرييل شارون، زعيم حزب الليكود، بزيارة الحرم الشريف/ جبل الهيكل في القدس في 28 أيلول من العام 2000، برفقة 1000 عنصر من عناصر الشرطة الإسرائيلية. وأدّت المواجهات التي أعقبت ذلك مع المتظاهرين الفلسطينيين إلى مقتل أربعة وإصابة مئتين فضلاً عن

---

26 ـ شبلي تلحمي، "تجنّب اللوم في قمّة شرق أوسطية"، *بالتيمور صن*، 27 تموز 2000.

جرح أربعة عشر شرطياً إسرائيلياً. وكان هذا الحادث إشارة باندلاع انتفاضة الأقصى.

ومع أنَّ كلّ طرف راح يلقي اللوم على الطرف الآخر، فقد توصّلت لجنة بقيادة أميركية على رأسها السيناتور جورج ميتشل إلى استنتاج مفاده: "لم تُقَدَّم لنا أية أدلّة مقنعة على أن زيارة شارون قد تعدّت كونها فعلاً سياسياً داخلياً؛ كما أنّه لم تُقَدَّم لنا أية أدلّة مقنعة على أنَّ السلطة الفلسطينية قد خططت للانتفاضة"[27].

وعلى الرغم من العنف، واصل الإسرائيليون والفلسطينيون التفاوض، وأحرزوا مزيداً من التقدّم في تلك الجهود التي بذلوها حتى الرمق الأخير في طابا المصرية، خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني، لكنهم أخفقوا في التوصّل إلى اتفاق. وتحولت النفوس في إسرائيل باتجاه اليمين، ما أدّى إلى هزيمة باراك وانتخاب أرييل شارون، صاحب المواقف السياسية الأقلّ رغبة في التسوية والأكثر تصميماً على استخدام الوسائل العسكرية في قمع الانتفاضة.

وبصرف النظر عن أسباب العنف، فقد كان لهذا الأخير تأثيره الكبير على سيكولوجية الإسرائيليين، والفلسطينيين، والعرب عموماً. وهذا البعد السيكولوجي لم يُقَدَّر حقّ قدره من قِبَلِ أيّ طرف من أطراف الصراع.

---

27 ـ تقرير لجنة شرم الشيخ لتقصّي الحقائق (وهو ما يُعرَف أيضاً باسم "تقرير ميتشل")، 30 نيسان 2001.

سيكولوجيّتا الضعف وانعدام الأمن

يرى معظم العرب، وخاصةً الفلسطينيين، أنَّ إسرائيل بالغة القوة: فلقد هزمت مراراً جيوشاً عربية مجتمعة؛ ولا تزال تحتل أراضٍ عربية بعد خمس وعشرين سنة؛ وتتصرف على هواها مع الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال؛ وهي مدعومة من قبل القوة العظمى الوحيدة الباقية، الولايات المتحدة الأميركية؛ ولديها واحد من أقوى الجيوش في العالم كما تملك الأسلحة النووية الوحيدة في الشرق الأوسط. وهي قادرة على تحمّل الضغط الدولي، بما في ذلك قرارات الأمم المتحدة، دون أن تبدّل سياساتها الأساسية. ويرى الفلسطينيون على وجه التحديد، وخاصةً من هم تحت الاحتلال، أنَّ إسرائيل تسيطر على حياتهم اليومية، وتطلعاتهم الاقتصادية، وحركتهم، ومستقبلهم. فهم غالباً تحت رحمة تلك القرارات التعسفية الواضحة التي يطلقها الموظّفون العسكريون. أمّا الإسرائيليون، الواقعون في شراك ألمهم الخاص، فلم يقدّروا حقّ قدره ذلك المدى الذي بلغته مشاعر اليأس هذه لدى الفلسطينيين.

وبالمثل، فإنَّ إحساس العرب بقوة إسرائيل قد حال بين معظمهم وبين فهم عمق الشعور لدى الإسرائيليين بانعدام الأمن. ويعتقد كثير من العرب أنَّ قضية الأمن ليست سوى أداة تستخدمها

السياسة الخارجية الإسرائيلية بقصد إثارة التعاطف الدولي مع أعمالها العدوانية. ومع أنَّ بعض القادة والسياسيين الإسرائيليين يستخدمون هذه القضية لمصلحتهم، فإنَّ هنالك إحساساً فعليّاً وعاماً بانعدام الأمن بين معظم الإسرائيليين. وكما أنَّ لدى العرب تلك الرواية عن كونهم ضحايا بسبب الطريقة التي سار عليها تاريخهم في القرن العشرين، فإنَّ الإسرائيليين، وكثيراً من اليهود بصورة أعمّ، لديهم ذلك الوعي الجمعيّ الذي وُسِمَ على نحوٍ محتومٍ بانعدام الأمن. ويرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً برعب الهولوكوست، إلا أنَّ تاريخ إسرائيل، كما ينظر إليه الإسرائيليون، هو عامل آخر.

فعلى الرغم من نجاحاتها العسكرية والسياسية، تبقى إسرائيل دولة صغيرة، هشّة من الناحية الديمغرافية. وفي حين يمكن للعرب أن يبلّوا من هزائمهم بمرور الوقت، فإنَّ إسرائيل لا يمكنها أن تتحمّل هزيمة واحدة. ومع أنَّ الإسرائيليين قد أقاموا سلاماً مع مصر والأردن، فإنَّ في قرارة نفوسهم خوفاً من أنّ العرب لم يقبلوا في الحقيقة بوجودهم في المنطقة. وهذه السيكولوجيا هي عامل أساسي في التحولات السريعة صوب اليمين في إسرائيل بعد الحوادث التي فاقمت الإحساس بانعدام الأمن. ومثل السيكولوجيا في العالم العربي التي تستسلم لاستغلالها من قبل السياسيين الطموحين، فإنَّ سيكولوجيا انعدام الأمن الإسرائيلية تشكّل أرضية خصبة للسياسيين الطموحين.

روايتان مختلفتان

لقد ترك البعد السيكولوجي أثره الكبير على استعداد الجمهور في كلّ طرف لتقبّل الروايتين الرسميتين. ولو نظرنا إلى المفاوضات على أنّها حدث مهمّ في سيرورةٍ جاريةٍ، لكان بمقدورنا القول إنَّ كامب ديفيد قد أنجزت الكثير. فلقد ضيّق الطرفان الفجوة حول بعض القضايا المهمّة بصورة تتجاوز ما فعلاه في السنوات السبع السابقة من المفاوضات. إلاّ أنَّ الأمل بأن تكون هذه المحادثات هي" الفرصة الأخيرة " خلق شعوراً بالفشل واسع الانتشار.

وبعد الإخفاق في التوصّل إلى اتفاق في كامب ديفيد، كان هنالك تأويلان لما حدث مختلفان اختلافاً دراماتيكياً. وتتبع أهمية التأويل الإسرائيلي من أنّه يُرِي الإحباطَ واليأسَ المنتشرين داخل إسرائيل والسبب الذي دفع معسكر السلام الإسرائيلي إلى اتخاذ موقف الدفاع بعد انهيار المفاوضات. ففي نظر معظم الإسرائيليين، أنَّ رئيس وزرائهم السابق إيهود باراك قد قدَّم للفلسطينيين أفضل صفقة ممكنة، كما قدّم تنازلات لم يكن يحسب الكثيرون أنَّها ممكنة، بما في ذلك تلك التنازلات المتعلقة بالقدس، لكن عرفات رفض الصفقة بكل بساطة دون أن يزعج نفسه حتى بتقديم عرض مقابل. وبدلاً من مواصلة المفاوضات من غير عنف، كما تتابع هذه

الرواية، فإنَّ عرفات شجّع على اندلاع الانتفاضة العنيفة، لأنه لا يقبل باتفاقية تقوم على هذه الأسس ولاعتقاده أنَّ بمقدوره الحصول على المزيد من خلال العنف. فهو، في أفضل الأحوال، يهدف إلى دفع إسرائيل نحو المزيد من التنازلات غير المقبولة لدى الإسرائيليين؛ أما في أسوئها، فهو غير مستعد لأن يقبل إسرائيل كدولة يهودية ويصرّ على حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم الأصلية في إسرائيل، الأمر الذي سيحوّل إسرائيل إلى دولة ذات أكثرية عربية. وفي النهاية، فإنَّ ما يريده عرفات ليس الضفة وغزّة بل إسرائيل كلّها.

ومع أنَّ بعضهم لم يقبل هذه الرواية بكلّ تفاصيلها، إلا أنَّ معظم الإسرائيليين صدّقوا معظمها. ولذلك لم يَرَ معظم الإسرائيليين، بمن فيهم أولئك الذين يريدون الاستقرار السلمي، أيّة فرصة فعليّة لاستقرار قائم على التفاوض ولم يكن لديهم أيّ ردّ على أولئك الذين يريدون ممارسة سياسة عسكرية قاسية تجاه الفلسطينيين. وهذا ما يفسّر لماذا انتقل كثير من الإسرائيليين إلى اليمين وانتخبوا أرييل شارون رئيساً للوزراء، وهو الرجل الذي طالما ارتبط بالتكتيكات العسكرية الباطشة ضد الفلسطينيين.

وكانت لجنة إسرائيلية قد وجدت شارون غير مناسب لمنصب وزير الدفاع بسبب مسؤوليته غير المباشرة عن المجزرة التي أنزلتها جماعات لبنانية حليفة بالفلسطينيين في صبرا وشاتيلا العام 1982.

أمّا العمليات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين فقد دفعت وجهات النظر الإسرائيلية نحو مزيدٍ من التشدّد.

على الجانب الفلسطيني، كانت هنالك رواية مختلفة تماماً تفسّر ما حدث في كامب ديفيد. ومفاد هذا التأويل، الذي انتشر في أرجاء المجتمع الفلسطيني، أنَّ الإسرائيليين قد جاؤوا إلى التفاوض إنمّا لكي يقدّموا عرضاً على أساس "خُذْ أو دَعْ"، فقدّموا بضع تنازلات ولم يقدّموا أرضاً تكفي لقيام دولة فلسطينية قابلة للحياة. وتبعاً لهذه الرواية، فإنَّ القادة الفلسطينيين قد قدّموا للإسرائيليين تنازلات كثيرة إذْ قبلوا أن يبقى ثلثا المستوطنين في الضفة الغربية ملحقين بإسرائيل، وأن تكون أجزاء من القدس الشرقية تحت السيادة الإسرائيلية، وأن يشكّل الفلسطينيون دولة منزوعة السلاح. فهم يرون إذاً، أنّهم كانوا على استعداد لأن يتخلّوا عن الكثير. لكنهم يرون أن إسرائيل لم تقدّم سوى أقلّ القليل، بما في ذلك دولة مبتورة إلى الحدّ الذي لا يتيح لها أن تكون قابلة للحياة، ولم تقدّم أيّة سيادة على الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، خاصةً الحرم الشريف، ثالث أقدس الأماكن في الإسلام. فما أراده الإسرائيليون في حقيقة الأمر هو إملاء حلّهم الخاص بدلاً من مواصلة البناء على ما سبق أن تحقّق في كامب ديفيد: "إنْ لم تقبلوا شروطنا، فلن يكون هنالك مزيد من المفاوضات". وما يراه الفلسطينيون هو أنَّ الإسرائيليين يعتقدون أنَّ لديهم القدرة على فرض حلّهم الخاص ويحسبون أن الفلسطينيين،

بسببٍ من ضعفهم، لا خيار أمامهم إلا القبول بالشروط الإسرائيلية أو استمرار الاحتلال. ومن الواضح، بصرف النظر عن مدى عفوية الانتفاضة، أن كثيراً من الفلسطينيين قد تزايد اعتقادهم تزايداً مطّرداً بأن العنف وحده يمكن أن يحدّ من قوة إسرائيل الطاغية بما ينطوي عليه من رسالةٍ مفادها أنَّ الفلسطينيين ليسوا بلا حول ولا قوّة.

تمثّلت العاقبة المشؤومة في أنَّ الإسرائيليين والفلسطينيين المعتدلين باتوا في موقع دفاعي تماماً في حين غدت الكلمة للمقاتلين في كلا الطرفين. ومع أنَّ الاستطلاعات ظلت تبيّن أنَّ معظم الإسرائيليين والفلسطينيين يفضّلون استقراراً سلمياً قائماً على التسوية، إلا أن معظمهم لم يعودوا يرون أنَّ من الممكن قيام مثل هذا الحلّ. وبدأت حلقة مرعبة من العنف، وشكّل المدنيون ضحاياها من كلا الجانبين. وبعد سنتين من انهيار المفاوضات، كان واضحاً أنَّ كلا الطرفين كانا في حال أسوأ بكثير مما كانا عليه حين باشرا تلك المفاوضات وأنَّ أياً منهما لا يملك حلاً لوحده.

فعلى الجانب الإسرائيلي، تدهور الاقتصاد من الازدهار إلى العجز، الأمر الذي تفاقم بالهبوط الاقتصادي العالمي. وارتفع الإنفاق العسكري، وتدهورت السياحة بصورة دراماتيكية، وزادت البطالة. وأعلنت الحكومة عن نيّتها اتخاذ إجراءات قاسية في الضفة الغربية وغزّة بغية تعزيز الأمن الإسرائيلي، لكن

الإحصاءات التي نشرتها الشرطة الإسرائيلية في آب 2002 كانت واضحة: ففي الأشهر الستة الأولى من عام 2002، قُتِلَ 238 إسرائيلي من جرّاء الهجمات الفلسطينية، مقارنة مع 68 في الفترة ذاتها من العام السابق. وهذه الإحصاءات لا تشتمل على الجنود. ففي واحد من الإحصاءات الدالّة، أشارت الشرطة إلى أنه طوال العام 1999، السنة الكاملة السابقة على انهيار المفاوضات، لم يكن هنالك سوى اثنتي عشرة عملية تفجير نُفِّذت أو اكتُشِفَت في إسرائيل. أما بين 1 كانون الثاني 2002 و18 تموز من العام ذاته، فكان عدد عمليات التفجير 465. وقد قتل ما يزيد عن 550 إسرائيلي وجُرح الآلاف في السنة الأولى والثانية من الانتفاضة، وتعزّزت سيكولوجية الخوف وانعدام الأمن من جرّاء العمليات الانتحارية المرعبة التي حصدت حياة كثير من المدنيين.

وعلى الجانب الفلسطيني، كادت الحياة أن تبلغ حدّاً لا يُطَاق مع توقّف عجلة الاقتصاد التام وازدياد حدّة الفقر. ووجد كثير من الفلسطينيين أنفسهم في ظلّ نظام من الحظر ومنع التجول المفروض لفترات طويلة على مدى الأربع والعشرين ساعة. أمّا عمليات البحث ونقاط التفتيش التي حدّت من حركتهم، حتى ضمن المدينة ذاتها في بعض الأحيان، فقد جعلت أداء معظم الواجبات العادية تجربةً مؤلمةً ومُذِلّةً إلى أبعد الحدود. ومن ثم كانت هنالك الإصابات: فمن بين عدد السكان البالغ ثلاثة

ملايين، كان عدد القتلى خلال السنتين اللتين تلتا إخفاق المفاوضات أكثر من 1500 فضلاً عن آلاف كثيرة من الجرحى وآلاف الأسرى. أما فوق ذلك كلّه، فقد كان ثمّة اليأس.

هل يتعلّمان قطّ؟

نظراً للأثمان الباهظة المتزايدة التي يواصل كلّ جانب دفعها، ونظراً لما يزال عليه الشعبان من أملٍ بإمكانية إيجاد حلٍّ سلميّ، فهل سيتعلّمان أنَّ العنف لا يفيد في النهاية وأنَّ عاقبته وخيمة؟ هل يغيّران فجأة مسارهما؟ ما تبيّنه الأدلّة، لسوء الحظّ، هو أنّهما من غير المحتمل أن يكسرا هذه الحلقة إذا ما تُركا لوحدهما.

لقد نشرتُ دراسةً مع ثلاثة زملاء (هم جوشوا غولدشتين، وجون بيفهاوس، وديبورا غيرنر[28]) تبحث في الصراع والتعاون في الشرق الأوسط خلال فترة تبلغ عشرين عاماً (1979 ـ 1999). وقد تفحّصنا في هذه الدراسة المعطيات اليومية لنرى كيف كانت ردّة فعل كلٍّ طرف على أفعال الطرف الآخر على أساسٍ يوميّ. ووجدنا

---

28 ـ جوشوا .س.غولدشتين، جون.سي.بيفهاوس، ديبورا غيرنر، وشبلي تلحمي، "العلاقات الثنائية، والثلاثية، والتعاون في الشرق الأوسط 1979 ـ 1997"، في ***Journal of Conflict Resolution***، العدد 45، السنة 5 (تشرين الأول 2001): 594 ـ 620.

اثنين من الأشياء: أولها، أنَّ الردّ بالمثل يغدو هو المعيار حيث يسلك البشر على نحوٍ متزايد تبعاً لمبدأ واحدة بواحدة. وهو سلوك يتعزّز بمرور الوقت ويغدو طبيعياً. وثانيهما، أنّه على الرغم من واقعة أنّ أمورهم كانت تغدو أسوأ من جرّاء السلوك الانتقامي، إلا أنّه ليس من الضروري أن يتوصّلوا إلى التعاون والتنسيق اللذين ينجمان عن تعلّمهم أنَّ العنف لا يفيد في النهاية. فلماذا؟

والجواب الأول هو السياسة الداخلية. فحين يكون ثمّة هجوم على طرف، يطالب الرأي العام بالردّ. فالشعب لا يقبل أن يكون عاجزاً بلا حول أو قوة. لا يقبل أن يحجم ويتراجع. فحتى لو لم يكن الانتقام مفيداً، عادةً ما تضغط الشروط السياسة الداخلية باتجاه القيام بفعلٍ ما، بما في ذلك الأفعال التي قد لا تفيد، حتى حين يدرك الجمهور أنّها لا تفيد. فالانتقام غالباً ما يكون غايةً بحدّ ذاته.

والثاني، أنَّ هنالك اعتقاداً مخاتلاً لدى كلّ طرف مفاده أنَّ عدم الفعل هو أسوأ من الفعل؛ أيّ أنه إذا لم يردّ، فسوف يفسّر الطرف الآخر عدم الفعل على أنّه ضعف مما سيجعل الطرف الذي لم يردّ هدفاً لمزيد من العنف. ولهذا فإنَّ البشر، على الرغم من علمهم أنّ الفعل لا يحلّ المشكلة، غالباً ما يشعرون بأنَّ الفعل يبقى أيسر حالاً من عدم الفعل. وهذا النمط من التفسير هو ما يسمعه المرء في الصراعات عموماً، وهو موقف شائع بلا شكّ لدى كلّ من الإسرائيليين والفلسطينيين.

والثالث، هو أنَّ كلّ طرف يميل لأن "يتعلّم" من الأمثلة الخطأ في التاريخ لكي يبرّر ميله إلى الردّ بهذه الطريقة. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الفلسطينيين يقولون: " لقد أفلح العنف في لبنان، وتمكّن مقاتلو حزب الله من طرد إسرائيل. ولذلك، فإنّ بمقدورنا أن نفعل الشيء ذاته ". فالفروق الواضحة بين الوضعين لا تمنع البشر من رؤية مثل هذه التشابهات. وبالمثل، فإنَّ كثيراً من الإسرائيليين يحاولون أن يجدوا التشابهات بين أفعالهم في المناطق الفلسطينية والحملة العسكرية الأميركية الناجحة في أفغانستان، كما لو أنَّ الوضعين قابلان للمقارنة. أما ما يدفع هذه التبريرات فهما الميلين الأولين اللذين أشرت إليهما أعلاه.

بل إنَّ هذه العوائق التي تحول دون كسر حلقة العنف تتواجد حتى في الظروف المثالية، حين يفضّل القادة حقاً أن يتعاونوا. غير أنَّ الظروف أبعد ما تكون عن المثالية: فهناك أدّلة وافرة تشير إلى أنَّ أرييل شارون، حتى من دون هذه الظروف، ليس مستعداً لأن يقدّم إلاّ أقلّ بكثير مما سبق لياسر عرفات أن رفضه.

المخاطر القادمة

بدلاً من أن يغدو التعاون ذلك الدرس الذي يتمّ تعلّمه من فشل الطرائق العنيفة، فإنّه سيغدو أصعب فأصعب بمرور الوقت. ذلك أنّ ثمة عاملين كبيرين سوف يعملان على الضدّ من التطور الطبيعي صوب الحلّ.

العامل الأول، هو أنَّ هنالك عدم اقتناع متزايد بإمكانية التعايش، يغذّيه العنف الوحشي وتُفاقِمُه تلك الفورية التي تنقل بها وسائل الإعلام الجديدة الأحداث. ولقد عمل حادثان على تبديد قَدْرٍ كبير من سيكولوجيا الأمل لدى كلا الجانبين. فبالنسبة للفلسطينيين، لم تكن صورة الفتى الفلسطيني، محمد الدّرة، ابن الاثني عشر عاماً، وهو يُقتل بالرصاص بين ذراعي والده العاجز في 30 أيلول 2000، والتي نقلها التلفزيون على نحوٍ يكاد أن يكون حيّاً، مجردّ مأساةٍ تتخلّع لها القلوب بل استعارة لإحساسهم بالعجز حيال الاحتلال العسكري الإسرائيلي. وبالنسبة للإسرائيليين، فقد عمل ضرب اثنين من الإسرائيليين المقيمين في المناطق الفلسطينية حتى الموت في 12 تشرين الأول 2000، والذي التقطته الكاميرا أيضاً، على إثارة مخاوف عميقة حيال أمن إسرائيل وطَرَحَ أسئلةً حول إمكانية التعايش.

ولقد كان لمجزرة ربيع العام 2002 تأثيرها الواسع على سيكولوجية المنطقة. فعلى الجانب الإسرائيلي، كان لتصاعد العمليات الانتحارية، ومن بينها تلك العملية الرهيبة في ناتانيا في عيد الفطير عند اليهود والتي خلّفت كثيراً من القتلى والجرحى، أن يخلّف ندوباً تتحدى فكرة التعايش ذاتها. وبين الفلسطينيين، كان لوحشية الأفعال الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزّة، ومن بينها انتهاكات شديدة لحقوق الإنسان، أن تزيد الدافع إلى الثأر والانتقام. أما في العالم العربي، فكان للصور الحية التي بثّها

التلفزيون للفلسطينيين العزّل وهم يواجهون الدبابات الإسرائيلية بينما العالم يتفرّج، أن تترك على الوعي الجمعي للجيل الجديد ما يضاهي تلك الندوب التي تركتها حرب 1948.

أما العامل الثاني، فهو أنَّ ضروب النقاش والجدال حول الصراع راحت تستخدم على نحوٍ متزايدٍ لغةً عرقية دينية بدلاً من اللغة الوطنية التي أعطت فرصةً لتسوية ممكنة. فالعرب، خاصةً الفلسطينيين، يتكلمون بصورة متزايدة على "اليهود" بدلاً من الإسرائيليين، في حين يتكلم كثير من الإسرائيليين عن "العرب" و"المسلمين". وهذه ظاهرة خطيرة ومحبطة بالنسبة لكلا الطرفين. فإذا ما كان ثمّة حلّ ممكن لهذا الصراع خلال الجيل الحالي، فإنَّ الأمل يبقى محصوراً بوضع الصراع في إطار وطني: دولتان لشعبين، إحداهما تعكس الوطنية اليهودية، والأخرى الوطنية الفلسطينية. أما إذا تحدّد الصراع بحدود إثنية ودينية في جوهرها، فإنَّ من الصعب أن نتصوّر حلاً، في هذا الجيل على الأقل. بل إنَّ مثل هذا الحلّ سيغدو أشدّ صعوبة مع استمرار حلقة العنف والاحتلال.

كسر الحلقة

العنفُ يولّد العنفَ، واليأسَ، وغيابَ بديل حقيقي للعنف، ويعزّز الحلقة الشريرة. غير أنّه على الرغم من الظروف الصعبة التي يجد فيها الفلسطينيون والإسرائيليون، بل العرب والإسرائيليين،

أنفسهم، فإنَّ الاختراقات يمكن أن تحصل. فمثل هذه الاختراقات، والخلق المفاجئ للأمل، ولمسارٍ بديل، تحصل في التاريخ من خلال أفعال القيادة، سواء المحلية منها أو الدولية.

فالقادة لديهم القدرة على تغيير سيكولوجية الصراع، وخلق الإمكانيات عبر أفعال جريئة. لكن هذه الأفعال لها ثمنها: فالنجاح ليس أكيداً. والشجاعة غالباً ما تكون غير عقلانية على المدى القصير، وفي بعض الأحيان تكون باهظة الثمن بالنسبة للقادة أنفسهم. فالاختراقان الكبيران في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي ـ المعاهدة المصرية الإسرائيلية واتفاقيات أوسلو ـ قتلا قائدين شجاعين هما أنور السادات وإسحق رابين. إلا أنَّ أفعالهما غيّرت احتمالات المصالحة السلمية وخرقت محرّمات كانت تبدو مستحيلة الاختراق. فمثل هذه الأفعال ممكنة، لكنها نادرة في التاريخ.

كما يمكن للقيادة أيضاً أن تأتي من الخارج. فنظراً لكون الصراع العربي الإسرائيلي صراعاً ذا عواقب لا تقتصر في تأثيرها على دول الشرق الأوسط بل تتعدّاها إلى الدول الأخرى، بما في ذلك الدول الأوروبية، فإنَّ لكثير من الأطراف نصيب ممّا يحدث. ومع أنَّ معظم الدول العربية لم تتّخذ خطوات مباشرة للتعامل مع الصراع، أدّى التصعيد في العام 2002، واهتمام هذه الحكومات بردّة فعل شعوبها من جهة أولى وبالحفاظ على علاقات جيدة مع الولايات المتحدة من جهة أخرى، إلى مبادرات جديدة. فقد قدّمت

العربية السعودية، بوجهٍ خاص، اقتراحاً لحلٍّ شامل للصراع العربي الإسرائيلي، يقوم على أساس انسحاب إسرائيل الكامل من الأراضي المحتلة في العام 1967 مقابل السلام الكامل والعلاقات الطبيعية بين إسرائيل والدول العربية. ومما له أهميته في هذا المجال، أنَّ هذا الاقتراح قد دعّمته القمة العربية التي عقدت في بيروت، في آذار 2002. كما دُعِمَتْ هذه الجهود أيضاً بالديبلوماسية المتواصلة للاتحاد الأوروبي، الذي وظّف أموالاً في السلام، خاصةً في الاقتصاد الفلسطيني المضطرب.

وفي النهاية، فإنَّ ما من فريق يمكن أن يحقق نتائج دون أن يقنع إسرائيل فضلاً عن الفلسطينيين. وما من فريق يحتلّ ذلك الموقع الذي يمكن منه التأثير على كلا الطرفين مثل الولايات المتحدة، ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى دعمها الاقتصادي والعسكري والسياسي الكبير لإسرائيل وبعض الدول العربية؛ وإلى وجودها العسكري في المنطقة؛ وإلى ثقلها العالمي بوصفها القوة العظمى الوحيدة الباقية. ولهذه الأسباب، فإنَّ معظم الناس في المنطقة يرون أن مفتاح السلام هو في البيت الأبيض في نهاية المطاف.

ما الذي يجعل أميركا هدفاً للغضب؟

لطالما اتّسم بالمبالغة ذلك الرأي القائل إنَّ "99٪" من الأوراق هي في يد أميركا. فحتى حين يعطي رئيس أميركي أولويةً فائقةً

لتحقيق السلام في الشرق الأوسط، كما فعل بل كلينتون في السنة الأخيرة من رئاسته، فإنَّ النجاح لا يكون مضموناً بأيّ حال من الأحوال. غير أنَّ لأميركا دوراً مركزياً تلعبه، ولأفعالها عواقب لا تقتصر على الشرق الأوسط بل تتعداه إلى مصالح الولايات المتحدة عموماً. وما من أحد سوى الفرقاء أنفسهم يمكن أن يؤثّر على النتيجة أكثر من أميركا.

ومن وجهة نظر الكثيرين في الشرق الأوسط، فإن إسرائيل تستمدّ قوتها من الدعم الأميركي. فهي تدين بقسم كبير من تفوّقها العسكري الحاسم إلى دعم أميركا، ومع أنَّ اقتصادها بات أقل اعتماداً على الولايات المتحدة بمرور الوقت، إلا أنَّ إسرائيل لا تزال تتلقى معونة أميركية أساسية مباشرة وغير مباشرة. والأهمّ من ذلك، أنَّ القدرة الأميركية في المنظمات الدولية تدرأ إسرائيل من قرارات مجلس الأمن. فمنذ قيام الأمم المتحدة، كانت معظم الحالات التي استخدمت فيها الولايات المتحدة حقّ الفيتو في مجلس الأمن أو هدّدت باستخدامه متعلّقةً بالصراع العربي الإسرائيلي. وغالباً ما وجدت الولايات المتحدة نفسها في طرف من هذه القضية بينما الأعضاء الآخرين جميعاً في الطرف الآخر.

ومن الأمثلة الدّالة ما حدث في ربيع العام 2002، بعد العمليات الإسرائيلية في المدن الفلسطينية على أثر سيل من العمليات الانتحارية الرهيبة داخل إسرائيل. فقد سجّلت منظمات حقوق الإنسان، ومن بينها بتسيليم الإسرائيلية، ومنظمة مراقبة

حقوق الإنسان التي تتمركز في أميركا، ومنظمة العفو الدولية التي تتمركز في بريطانيا، انتهاكات حادّة لحقوق الإنسان، بما في ذلك ما دعاه بعضهم جرائم حرب إسرائيلية. وكانت الصور تُبَثّ في أنحاء كثيرة من العالم مُظْهِرَةً ذلك الخراب الكبير الحاصل في المناطق المدنية. واتّهم العرب إسرائيل بارتكابها " أعمالاً وحشية " خاصةً في مدينة جنين. وفي هذه البيئة، كان من الصعب معرفة التفاصيل الدقيقة، غير أنه كان من الواضح أنَّ هنالك قدراً كبيراً من الموت والدمار. وبموافقة إسرائيلية، أعلن الأمين العام للأمم المتحدة تشكيل لجنة دولية للتحقيق والاستقصاء. وحين اجتمعت اللجنة في أوروبا في طريقها إلى المنطقة، قررت إسرائيل رفض دخولها. ووقفت الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل، ما أدى إلى إلغاء اللجنة. أمّا السخط على الولايات المتحدة وفقدان الأمم المتحدة لمصداقيتها من جرّاء ذلك فقد اتّسع انتشارهما في المنطقة.

وعلى المرء ألاّ يستخفّ بالأهمية المتواصلة لمواقف الولايات المتحدة من هذه القضية في تشكيل التصورات عن أميركا ليس في الشرق الأوسط وحسب بل أيضاً في أجزاء أخرى من العالم، خاصةً أوروبا. فمع أنَّ هذه القضية ليست ذات أولوية عليا لدى معظم الدول، إلا أن تكرّر الخلافات عليها، خاصةً في الأمم المتحدة، غدا عاملاً في تعزيز تصوّر سلبي سائد عن النزعة الأميركية أحادية الجانب. فليس مدهشاً أن الأغلبية في أماكن متباعدة مثل فنزويلا وفرنسا قد عبّرت في ربيع 2002 عن رأي مفاده أن نجاح

أميركا في تأمين حلّ لهذا الصراع سوف يؤدي إلى تحسّن نظرتهم إلى الولايات المتحدة.

ومعضلة أميركا في سياستها تجاه الصراع العربي الإسرائيلي هي أنها تريد، من جهة أولى، أن تبدي التزاماً لا يتزعزع بأمن إسرائيل ورفاهيتها، حتى لو عنى ذلك الوقوف ضد الأمم الأخرى. أما من جهة أخرى، فإنَّ قدرة أميركا على المساعدة في دفع مفاوضات الحلّ السلمي يقوّضها تماهيها مع إسرائيل. وهذه معضلة تتفاقم في لحظات الأزمة.

وفي النهاية، فإنَّ على القادة الإسرائيليين والفلسطينيين أن يأخذوا على عاتقهم مسؤولية إخراج تصوراتهم وأفكارهم خارج أي مسار كارثيّ. فمأساة حلقة العنف تتخطى الألم اليومي لكثير من الشعب البريء، الذي لا حول له و لا قوة. بل إنها تتخطى ما ينبغي أن يكون واضحاً: وهو أنَّ ما من طرف سيمكنه أن يحقق نتيجة مستقرة دائمة من خلال العنف. ففي موضع الرهان ثمّة قضايا وجودية بالنسبة لكلا الطرفين، وما من طرف منهما يمكن أن يَغْرب ويزول، هكذا ببساطة. كما أن هذه المأساة هي مأساة أخلاقية: فحتى لو كانت الغلبة العسكرية لطرف دون الآخر، فإنَّ الانتصار الظاهر سوف يكون انتصاراً فارغاً. فما الذي سيحصل لمجتمعهم، لأطفالهم، بوصفهم مقاتلين أو محتلين؟ لا يمكن لأميركا أن تكون غير مبالية، حتى بما يتجاوز المسؤولية الأخلاقية التي للأمم القوية في مواجهة المأساة وإراقة

الدماء. فمصالح أميركا هي موضع رهان: فإذا ما أُضعفت إسرائيل أو هُدِّدت، لن تقف أميركا على الحياد؛ وإذا ما إذا كانت لإسرائيل اليد العليا، ستظلّ أميركا هدفاً لغضب مئات الملايين من العرب والمسلمين بسبب تمكينها إسرائيل من خلال دعمها العسكري والاقتصادي والسياسي. ولا يمكن أن تُحَلَّ هذه المعضلة إلاّ إذا تعايش العرب والإسرائيليون بسلام. كما أنَّ أحداً لا يمكنه أن يتجاهل المصالح الاستراتيجية الأميركية الباقية في الخليج والتي كان من المحتوم أن تتأثّر بالصراع العربي الإسرائيلي. وهذه المصالح هي موضوع الفصل التالي.